اتجاهات فهم الثقافة

الاتجاه المادي:

يُرجِع أصحاب هذا الاتجاه تفسير وفهم الظواهر الثقافية إلى أسباب ماديَّة، كما أنهم يدرسون الثقافة من خلال تجليَّاتها المادية.

1- رؤية مالينوفيسكى:

يعتبر الروسي برونسيلاف مالينوفسكي (Bronisław Malinowski) من أفضل من عبرَّوا عن الاتجاه المادي في فهم الثقافة، فقد قال بأن الإنسان هو كائن حيواني يعيش تحت ضغط عدد من الاحتياجات الفسيولوجية من غذاء ومسكن وملبس ... إلخ، والثقافة هي أحد الاستجابات الوظيفية لتلك الحاجات، وهي تحقق تلك الاستجابة من خلال المؤسسات الاقتصادية والسياسية والتربوية ... إلخ.

وهذا التعبير يبدو صادمًا لأنه يركِّز بقسوة على الجوانب المادية في حياة الإنسان، ولكن الاتجاه المادي يتحرَّك في الحقيقة في هذا الاتجاه.

وتظهر بناءً على هذا التعريف العديد من الإشكالات خاصَّةً مع التعمُّق فيه، ومن أهم هذه الإشكالات كيفية تحديد الأولويات المادية، أو الاحتياج المادي الأبرز التي تنبني عليه الثقافة، هل هو المسكن أم الملبس أم الغذاء أم غير ذلك؟ فلا شك أن هذا السؤال تصعب الإجابة عليه بسبب اختلاف الاحتياجات من ظرف لآخر، ومن وقت لآخر.

ولكي نفهم الأولويات المادية وأهمية العوامل المادية المختلفة في تشكيل الثقافة نحتاج إلى تحديد:

1- العلاقة بين الموارد والاحتياجات: فعادةً ما تكون الموارد المادية للإنسان أقل من احتياجاته ورغباته، وهو باستمرار يحاول ويسعى ليزيد من موارده بالصورة التي تَكْفُل له تلبية أكبر حد من متطلباته واحتياجاته.

وحتى عندما يتمكن الإنسان من زيادة موارده وتلبية احتياجاته الحالية، فإنه سرعان ما يطمح إلى رغبات ومتطلبات جديدة فيرتفع مستوى احتياجاته ليصبح مرة أخرى أعلى من مستوى موارده، وبالتالي تبقى هذه الفجوة بين الموارد والاحتياجات ثابتة.

2- تفضيلات الفرد والمجتمع: فهل ترتبط هذه التفضيلات والأولويات المادية برؤية الفرد أم برؤية المجتمع؟ يبدو في الغالب أن الفرد هو الذي يلعب الدور الأكبر في تحديد احتياجاته المادية، ولكن الواقع أن المجتمع أيضا يلعب دورًا لا يمكن إهماله.

ولا تخرج العلاقة بين الموارد والاحتياجات عن ثلاث احتمالات:

1- أن يتمكن الشخص من التحكم في موارده واحتياجاته (وضع مثالي، يكاد يكون مستحيل).
2- أن يتحكم في أحدهما دون الآخر (خلل جزئي).
3- أن لا يتمكن من التحكم في أي منهما (خلل تام).

2- رؤية مارفن هاريس:

تتمثل رؤية مارفن هاريس (Marvin Harris) في أن "البشر لا يستطيعون تناول طعامهم، أو التنفس، أو الإخراج، أو الحركة، أو الإنتاج، دون أن يتضمن ذلك شيئا من ثقافة مجتمعهم، إن ثقافتنا تنمو وتتسع وتتطور، تلك هي طبيعتها".

وهو امتداد لرؤية مالينوفسكي، إلا أنه يزيد في التفصيل في الظواهر المادية، حتى يصل إلى الإخراج ويضعه ضمن الظواهر الثقافية، وهو أمر غريب وغير مفهوم نوعًا ما. لا شك أن الدين الإسلامي يحتوي على ضوابط وآداب لعملية الإخراج، لكن الرغبة في دراسة والبحث في مثل هذه الأمور الخاصة لتحديد ثقافة المجتمع هو الأمر الغريب في رؤية هاريس، وهو إغراق شديد في المادية.

ثم إن الحياة اليومية للإنسان مليئة بالكثير من الأنشطة والأعمال الكبيرة والصغيرة التي يستحيل دراستها بجميع تفصيلاتها، كما أن هذه الأعمال هي في الحقيقة تجليّات للثقافة وليست الثقافة ذاتها.

أثر الاتجاه المادي في دراسة الثقافة:

تؤدي دراسة ثقافات الشعوب من وجهة النظر المادية تلك إلى مجرد تصنيف الشعوب إلى متحضرة أو غير متحضرة بناءً على سلوكياتهم من وجهة نظر الشخص القائم بالتصنيف، ثم محاولة نشر وسائل وأساليب الحياة الخاصة بالثقافة العالمية الأكثر انتشارًا، وتعميمها على جميع الشعوب باعتبارها الأكثر تقدُّمًا وتحضُّرًا من وجهة نظر المصنِّف.

كما أن الاتجاه المادي ينظر إلى المجتمع بكل مركّباته (الأسرة، والمؤسسات السياسية، والاقتصادية، والدينية، ... إلخ) على أنه كُلٌّ لا يمكن أن ينعزل بعضه عن بعض، وإذا ما حدث تغيير في أحد هذه المركّبات فلابد أنه سيؤثر على البقية، فلا يمكن النظر إلى المجتمع على أنه وحدات منفصلة.

فالاتجاه المادي يحاول أن يحوِّل الثقافة إلى منتج مادي قابل للقياس والتصنيف، وليس مجرد أمور معنوية وروحية واعتقادات يصعب قياسها وتصنيفها. ومن أمثلة التفسيرات التي قام بها هذا الاتجاه لبعض الأمور والظواهر:

- تفسير عبادة الهنود للأبقار بأنها تعود إلى فترات سحيقة كان الهنود يحتاجون فيها الأبقار بشدة من أجل الزراعة وبعض الأعمال الأخرى التي كانت لها أهمية أعلى من مجرد أكل لحومها، وبالتالي نشأ الهندي على فكرة تقديس الأبقار لأن أجداده كانوا يرفضون ذبحها.
- تفسير ظهور الحركات النسوية بعد الحرب العالمية الثانية بأنها نتيجة لانتشار قضايا مآسي الأسر التي عانت أثناء الحرب وفقدت عوائها، إذ صارت المرأة هي التي ترعى وتقوم على هذه الأسر، وحدث اختلال في نسبة الرجال إلى النساء في العديد من الدول الأوروبية.

وعلى الرغم من نجاح الاتجاه المادي في مثل هذه التفسيرات، إلا أنه لاقى الكثير من الانتقادات والقصور في هذه التفسيرات، فمثلا لماذا الهند وحدها هي التي انتهت إلى عبادة الأبقار رغم أن جميع الشعوب لديها مثل هذه الاحتياجات، ولا شك أن مرجع مثل هذه الأمور هو لإهمال مثل هذه التفسيرات لجانب العقيدة.

الاتجاه المعرفي:

يركِّز هذه الاتجاه على المعتَقَد والمنجَز الإنساني والفكري، وليس على المظاهر المادية.

الثقافة في الاتجاه المادي:

من التعريفات التي تتبنى هذا الاتجاه المعرفي في تفسير الثقافة:

- "الثقافة هي الكل العام المنظِّم لأسلوب الحياة بما فيها من قيم ومعتقدات ومؤسسات، ويتم توارثه عبر التعلُّم". وهذا التعريف يعتبر انتقال الثقافة عبر التعليم والاكتساب، وليس عبر التوارث فقط.
- "الثقافة هي نمط السلوك الناتج عن التفاعلات الاجتماعية". وهو هنا يشير إلى التفاعلات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة كما في وجهة النظر الماركسية.

- "الثقافة هي كل السلوكيات التي ينتجها الإنسان بوصفه عضوا في المؤسسة البشرية". فالسلوكيات ضمن هذا التعريف ناتجة عن المعتقدات والقيم والأفكار الخاصة بالمؤسسة البشرية.
- "تنبع الثقافة من خلال النمو والانتقال البشري، وتلعب اللغة دورًا هامًّا في نقلها، كما تحملها مؤسسات التعليم والإعلام في خطابها".
- "الثقافة هي سجل كامل لتاريخ الإنسان ومُنجَزَه، وينتقل وراثيًّا إلى الأجيال المتعاقبة". وهذا التعريف يعتبر انتقال الثقافة عبر التوارث وليس الاكتساب.

وتتكرَّر في هذه التعريفات تعبير "مُنْجَز"، وليس بالضرورة أن يكون هذا المنجَز الإنساني إيجابيًّا، فهذا المنجَز يشمل الأمور السلبية أيضا مثل الحروب.

التفضيل بين الثقافات المتعددة:

كما وقع الاتجاه المادي في خطأ تصنيف الشعوب بناءً على سلوكياتهم، حاول الاتجاه المعرفي أيضا تصنيف الثقافات إلى ثقافات **أساسية (مشتركة)** وثقافات **هامشية**، وقام هذا التصنيف في الأساس على مدى الانتشار، وهو ما أدى إلى مزيد من التفتيت الثقافي، بل قد يكون هذا التقسيم مبنيًّا في الواقع على عدم قدرة أحد الهُوُيَّات على التأقلم مع غيرها من الثقافات في نفس المجتمع، فتصبح ثقافتها مهملةً ومهمَّشَة، بينما تكون الثقافة الشائعة في المجتمع هي الثقافة الأساسية.

من الاتجاهات التي كانت ترى ضرورة أن تكون الثقافة جامعة منتشرة، وأن نبحث دائما عن المشترك الثقافي وندعمه ونقوِّيه، وأن نقاوم التشظِّي الثقافي ونَحِدَّ من الثقافات الفرعيَّة، هو اتجاه الرومانتيكيُّين. بينما على النقيض تمامًا نجد تيار ما بعد الحداثة يدعو إلى قبول التنوع والتشظِّي الثقافي داخل المجتمع الواحد، بل تجد فيه اهتماما وتركيزا كبيرا على كل ما هو أكثر تهميشًا.

ومن آثار انتشار منهج ما بعد الحداثة قلة الاهتمام بالثقافة الأساسية للعالم الإسلامي أو العربي، في حين تجد اهتماما كبيرا بثقافات مهمشة للغاية ربما تكون مخالفة للأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع، كقضايا التحول الجنسي مثلا، والتي لا تؤدي إلا إلى مزيد من التشظي الثقافي، ولا تعبرِّ عن الثقافة العربية والإسلامية، كما يقل الاهتمام بالثقافات ذات المنتج الكبير كالثقافة الإسلامية والعربية، وفي المقابل قد تُنْفَق أموالا كبيرة لدراسة فلكلور شعبي أو ثقافة قرية مهمَّشة بعيدة.